((المحاضرة التاسعة : **الاتجاه الوظيفي**))

وقد اختلفت وجهات نظر اللغويين في دلالة اللفظة ، إذ أشار الزجاج إلى أنَّ (الصعيد) وجه الأرض سواء أكان في الموضع تراب أم غيره[1] ، وهذا ما عليه ابن الأنباري[2] ، والراغب الأصفهاني[3].

في حين ذهب الثعالبي إلى أنَّ (الصعيد: تراب وجه الأرض)[4].

والسبب في هذا الاختلاف أنَّ لفظة (الصعيد) لها دلالتان إحداهما أنَّ الصعيد: وجه الأرض ، والأخرى: التراب[5].

وربَّما كان اختلاف الفقهاء في الشيء الذي يجوز به التيمم ، نتيجة الاختلاف في دلالة الصعيد ، وهو ما أشار إليه السيوطي مبيناً معنى الصعيد في الآية بقوله: (صعيداً: وجه الأرض عند مالك ، كان تراباً أو رملاً أو حجارةً ، فأجاز التيمم بذلك كله ، وعند الشافعي التراب لا غير. واختلف في التيمم بالذهب والملح ، وبالآجر والجص المطبوخ ، وبالجدار والنبات الذي على وجه الأرض ، وذلك كله على الاختلاف في معنى الصعيد)[6].

من هنا يتضح أَنَّ ابن خالويه ذكر الدلالتين العامة: وجه الأرض ، والخاصة: التراب. للفظة في الآية الأولى ، وذلك من باب أنَّ سياقها يشمل المعنيين ، وفي الآية

---

(1) ينظر معاني القرآن وإعرابه 45/2 .
(2) ينظر الزاهر 135/1 .
(3) ينظر المفردات (صعد) 484 .
(4) فقه اللغة 186 .
(5) ينظر لسان العرب (صعد) 241/4 والقاموس المحيط 318/1 .
(6) معترك الأقران 568/2 .

الثانية: اكتفى بذكر الدلالة الخاصة وهي (التراب) دون غيره لصلته القوية بالتيمم ، والله أَعلم.

وقد يكتفي ابن خالويه في مجال عنايته بتفسير دلالات الألفاظ في الاستعمال القرآني ، بذكر دلالة واحدة للفظ الذي يفسره ، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴾[الصافات: 94] إذ قال في معنى (يزفون): صاروا إلى: (الزفيف وهو ابتداء عدو النعامة وسرعته)[7] ، ويبدو أنه قد اكتفى ببيان المعنى اللغوي للفظة من غير أنْ يبين معانيها الأُخر ، وهذه السمة قد تكون بارزة في منهجه التفسيري لدلالات الألفاظ القرآنية في دراساته اللغوية لأنه لغوي أكثر من كونه مفسراً.

وكان تفسيره مناسباً لدلالة النص القرآني الذي وردت فيه اللفظة ، وهذا يشير إلى مدى تأمله لمعناها في الاستعمال القرآني ، ومما يشهد لذلك أن تفسيره لها جاء متفقاً وفهم المفسرين الذين حملوها على الدلالة اللغوية ، كالزمخشري[8] والقرطبي[9] وابن كثير (ت774هـ)[10].

وقد ساد هذا المنهج التفسيري في عصر الصحابة وصدر التابعين ، إذ كانوا يقتصرون فيه على بيان المعنى اللغوي للآية التي يحاولون تفسيرها[11].

ويعلل ابن خالويه في بعض الأحيان توجيهه دلالة المفردة القرآنية نحو الدلالة اللغوية ، ويتضح ذلك في بيانه دلالة لفظة (الزَّبور) في قوله تعالى: ﴿وَآَتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ [النساء: 163] إذ يصرح بأن: (الزبور بالفتح: الكتابُ ، والزَّبور: جمعٌ وسمِّي

---

(7) الألفات 145/3 وينظر لسان العرب (زفيف) 436/11 .

(8) ينظر الكشاف 345/3 .

(9) ينظر الجامع لأحكام القرآن 64/15 .

(10) ينظر تفسير القرآن العظيم 15/4 .

(11) ينظر فجر الإسلام 206 ، والتصوير الفني في القرآن 27 .

الَّزبور زبوراً ؛ لأنَّ معنى الزُّبر: الكتابة)[12] ، ويحتج لقوله هذا بما جاء في الشعر العربي ، وأقوال بعض اللغويين ، إذ عزز هذا المعنى بقول أبي ذؤيب الهذلي[13]: (من المتقارب):

عَرَفْتُ الدِّيارَ كَرَقْمِ الدَّوا ... ةِ يَزبِرُها الكِتَابَ الحُمَيِّرِيْ

وذكر قول الأصمعي: زبرتُ الكتابَ: كتبته ... [14].

وقد خالف الراغب الأصفهاني ابن خالويه في معنى (الزبور) إذ نجده يخصصه بصفات معينة منها ما يتعلق بظاهره من جهة ، وما يتعلق بمضمونه من جهة أُخرى ، إذ يقول: (كل كتاب غليظ الكتابة يقال له: زبور ، وخصَّ الزبور بالكتاب المنزل على داود عليه السلام ... وقيل: بل الزبور كلّ كتاب يصعب الوقوف عليه من الكتب الإلهية ، وقال بعضهم الزبور اسم للكتاب المقصور على الحِكم العقليةِ دون الأحكام الشرعيةِ ، والكتاب: لما يتضمن الأحكام والحِكم ، ويدل على ذلك أن زبور داود (عليه السلام) لا يتضمن شيئاً من الأحكام)[15] ، وقد تبين من قوله إنَّه فرَّق بين الزبور والكتاب ، وهذا الأمر هو الذي جعله يختلف عن تفسير ابن خالويه لمعنى (الزبور) ، الذي فسره (بالكتاب) دون أن يخصص دلالته كما فعل الراغب في تفسيره.

---

(12) إعراب القراءات 140/1

(13) ديوان الهذليين 64/1 .

(14) إعراب القراءات 140/1 .

(15) المفردات (زبر) 377 .

ويرى أبو حيان (ت754هـ) في تفسيره أنَّ كلَّ كتاب يسمى زبوراً ، وقد غلبت هذه التسمية على الكتاب الذي أنزله الله تعالى على داود (عليه السلام)[16].

ولعل ما رواه أبو حيان يوافق ابن خالويه في بيانه دلالة المفردة القرآنية ؛ لأنه لم يخصص دلالة (الزبور) بكتاب معين ، وإنَّ إطلاقه على كتاب داود كان من باب التغليب ؛ لأنَّه قد ورد في السياق القرآني مقترناً باسم داود (عليه السلام) ، ولهذا حدد بعض المفسرين دلالته بأنَّه كتاب داود ، قال القرطبي: (الزبور: كتاب داود ..)[17] ، ولكن لفظة (الزبور) وردت في موضع أخر غير مقترنةٍ بشيء ، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ ﴾ [الأنبياء: 105] ولعل هذا دليل على صحة تفسير ابن خالويه لها.

---

(16) ينظر البحر المحيط 397/3 .

(17) الجامع لأحكام القرآن 303/5 .